الحصة السادسة

ابْتِكَارُ اليَوْمِي:

مِيشَال دُو سَارْتُو

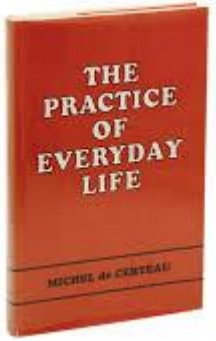

مَدْخَل إلى دِرَاسَة اليَوْمي

الحديث عن اليومي هو استحضار الكيفية التي يُبدع فيها الإنسان شرطه الحاضر، عبر مختلف الابتكارات والاستعمالات. قدَّم ميشال دو سارتو في كتابه «**ابْتِكَار اليَوْمي**» (1980) قراءة حصيفة عن الأبعاد التَّداولية لليومي. واستعاد مباحث عديدة من فلسفة هنري لوفيفر عن الحياة اليومية، لكنه قام بتعديلها وأقلمتها للمباحث التي اشتغل عليها والتي كانت تُشكّل صُلب تفكيره الديني والفلسفي والاجتماعي، وعنيتُ بذلك «**التاريخ**» بالتفكير المنهجي عن الحدث التاريخي وعن مهنة المؤرّخ؛ و«**التصوُّف**» بالتفكير النقدي عن التعبير الصوفي وطريقة تنظيم الحقل الخطابي أو الألسني للظاهرة الروحية؛ و«**اليومي**» بالتأمُّل العميق في الممارسات اليومية العادية التي تشمل التعبير اللغوي في التبادل الشفهي، وفن الطبخ، وفن السكن، والقراءة، والتجوُّل في المدينة، إلخ.

ابْتِكَارُ اليَوْمي في جُزْأيْن

كيف قرأ ميشال دو سارتو اليومي؟ وما هي الإضافة التي أتى بها بالمقارنة مع الدراسات السابقة عليه أو المعاصرة له؟ وأيُّ منهج اقتفى مبادئه في معالجة اليومي؟ كتابه «**ابْتِكَار اليَوْمي**» في جزأين: الجزء الأول «**فُنُون الأدَاء العَمَلي**» ألَّفه بمفرده، والجزء الثاني «**السَّكَن والطَّبْخ**» دوَّنه بالاشتراك مع طُلَّابه، لوس جيار (L. Giard) وبيير مايول (P. Mayol)؛ هو أحسن مدخل إلى قراءة طبيعة اليومي. تطرَّقنا في الحصة السابقة إلى ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية التي اكتست عند لوفيفر أهمية كبرى في قراءة اليومي، حيث الاستراتيجية هي أزمنة الغليان الثَّوري والتأسيس العملي للعالم، والتكتيكية هي أزمنة التَّفاهة والرتابة أو الروتينية. استعاد دو سارتو هذه الثنائية، لكنه قام بقلبها أو عكس حدودها، حيث تدل الاستراتيجية عنده على ما هو صلب وصارم وسلطوي، وتدل التكتيكية على ما هو دينامي وحيوي وخلاَّق.

أشْكَال الاسْتِرَاتِيجيَّة والتَّكْتِيكيَّة

ثنائية الاستراتيجية-التكتيكية عند دو سارتو هي عنده «**ثابتة**» بشرية تقوم على فكرة «الثابت» و«المتحوِّل» وقابلة للتَّعميم على جميع المجالات اليومية:

- في **الهندسة المعمارية** «الثابت» هو المنزل بشكله من جدران وأبواب ونوافذ والمواد التي يتركَّب منها، و«المتحوِّل» هو النشاطات التي يقوم بها الأفراد في المنزل، وجُملة الممارسات التي يؤدُّونها يوميًّا.
- وفي **المجال الحَضَري** «الثابت» هو المدينة بعماراتها وشوارعها وحاراتها وبناياتها العالية، و«المتحوِّل» هم الأفراد الذين يتحرَّكون بداخلها عبر سياقة المركبات والسَّيَّارات أو مشيًا على الأقدام في التجوُّل أو التسوُّق.
- وفي **المجال اللغوي**، «الثابت» هو اللغة بأبجديتها ومعجمها أي بحروفها وعباراتها المتداولة، و«المتحوِّل» هو الممارسات اللغوية في السياق أو الكلام الحي الذي يُنجز اللغة تداوليًا.

اسْتِعْمَالَاتُ اليَوْمي: المدِينَة، والمنْزِل، واللُّغَة

اليومي زاخر بالأفعال والحركات والممارسات التي تُبتكَر وتُوجَّه في كل لحظة. فهي تكتيكات دينامية تعمل على الإفلات من سيطرة الاستراتيجيات الضَّخمة والثقيلة: الإدارة، والمؤسسة التربوية والاقتصادية، والقانون الصارم، إلخ. ما يقوم به الأفراد يوميًا هو التَّحايُل على الطابع السُّكوني لليومي، بنفخ الحركة فيه وتحريك بنياته الثابتة. العامل الأساس الذي من شأنه أن يُحرِّك الثابت من الداخل، هو «**الاستعمال**». الاستعمال هو إزاحة الثابت ونفخ الحركة فيه: مثلًا، استعمال المكان الحَضَري (المدينة) بالتنقُّل، واستعمال المكان الهندسي (المنزل) بتنظيم الدَّاخل (الغُرف، والأثاث، إلخ)، واستعمال أبجدية اللغة لتركيب عبارات تُستعمَل في سياق الحديث وتصبح ممارسات لغوية لها علاقة بإطار عملي معيَّن.

الإنْتَاج والاسْتِهْلَاك

يريد دو سارتو بالاستعمال مجاوزة التصوُّر السلبي عن أفرادٍ خاضعين لمنطق الإنتاج ويكتفون باستهلاك المواد المنتجة. الرهان هو تبيان أنَّ الاستعمال هو تكتيكية في التَّحايُل على الإنتاج، وبالتصرُّف به بأشكال مختلفة ومتنوِّعة. لا يعرف صاحب الإنتاج مآل المنتجات التي صنعها. فهي بين أيادي الأفراد يتصرَّفون بها وفق إرادتهم، وبالاستعمال يُعطون للإنتاج حياةً ثانيةً بعد التخطيطات والميزانيات وصخب الآلات في المصانع والشَّركات. عندما يستعمل الفاعل الاجتماعي المنظومة التي يوجد فيها (مثلًا، المنظومة الاقتصادية مثل قانون الإنتاج)، والمفروضة عليه، فهو يُعدِّلها بمجرَّد أنه يستعملها. يقوم بتكييفها مع شرطه التَّداولي.

مُصْطَلَحُ الاسْتِعْمَال

في جوابه عن أسئلة لوي كيري، يقول دو سارتو: «إنَّ المَمَارَسَات المدْرُوسَة في [كتابي] **ابتكار اليومي** هيَ ما نَدْعُوه في اللِّسَان الإنْجليزي بالمفْرَدَة "يُوزْ" (use). لاعْتِبَارَات تقْنيَّة خَاصَّة باللُّغَة الفَرَنْسيَّة، مُصْطَلَح "يُوزَاجْ" (usage) لهُ دَلَالَة وَضْعيَّة، عِنْدَمَا نَقُول الاسْتِعْمَال [يقصد في الفرنسية]، فإنَّا نَسْتَحْضِر الشَّكْل الوَضْعي للسُّلُوك، بَيْنَمَا الرِّهَان هُوَ العَوْدَة إلى مَا أثَار اهْتِمَام المنْطِق الإنْجليزي مُنْذُ مُور (G.E. Moore)، بمعْنَى اسْتِعْمَال اللُّغَة».

Louis Quéré (1981), « Les sciences sociales face à la rationalité des pratiques quotidiennes : questions à Michel de Certeau », in *Problèmes d'épistémologies en sciences sociales, II- Sociologie, pratique et politique*, Paris, CEMS (EHESS, CNRS), p. 84-85.

اللُّغَة والكَلَام

كيف استثمر ميشال دو سارتو الاستعمال في قراءة الممارسات اليومية؟ وانطلاقًا من أيَّة نماذج استطاع أن يقدِّم إطارًا وصفيًا للاستعمال؟ انطلق دو سارتو من ثنائية هي عريقة بقدر ما هي ثورية في الدراسات التداولية وتخصُّ ثنائية «اللغة» و«الكلام». هناك «**نسق**» ثابت بماديته اللغوية أو بهيكله الحرفي والقاعدي (أبجدية، وأحكام نحوية، وتقعيد معجمي...)، و«**أداء**» متحرِّك ومرن يستعمل اللغة في سياق معيَّن وفي ظرف محدَّد وهو الكلام في المحادثات اليومية. هناك، إذا جاز التعبير، «**الرَّصيد**» (النسق اللغوي) و«**الصَّفقات**» (الأداء الكلامي)، أي **وجود قبلي** لعلامات مقنَّنة نحويًّا ومعجميًّا بوصفها الرأسمال، و**أداء بعدي** يتلخَّص في الاستعمال اليومي لعبارات شائعة بوصفها الصفقات. بالموازاة مع هذا التمييز بين اللغة والكلام والقول (سوسور)، أو بين النسق والاستعمال (هيمسليف)، أو بين الرصيد والصفقات (رايل)، يستثمر دو سارتو التمييز الذي أقامه إميل بنفنيست بين المنطوق (énoncé) وأدائية التعبير (énonciation).

الاسْتراَتيجي والتَّكْتِيكي في اليَوْمي

بالقياس مع هذا النموذج اللغوي، يبتكر دو سارتو ثنائيات سيكون لها صدى كبير في الدراسات التداولية المعاصرة، خصوصًا في بُعدها اليومي. أخصُّ بالذكر ثنائية «**الاستراتيجية والتكتيكية**» كما قدَّمتُ خطوطها العريضة من قبل. تتجلَّى «**الاستراتيجية**» نسقًا من الأعراف أو القواعد أو الإكراهات، وهي تعادل «نسق اللغة» في الدراسات الألسنية؛ وتتبدَّى «**التكتيكية**» استعمالًا فعليًّا في ظروف أو ملابسات معيَّنة، وهي تعادل «أدائية التعبير». يظهر الاستعمال كهمزة وصل وفصل بين الاستراتيجية والتكتيكية؛ بين ما له خاصية الثبوت والصلابة والقوَّة (المؤسَّسات السياسية والقضائية والعسكرية والاقتصادية والعلمية) وبين ما له خاصية التحوُّل والرَّخاوة والانسياب (البادية أمام المدينة، والتعبير الشفهي أمام الكتابة، إلخ).

العَدِيدُ مِنَ المَمَارَسَات اليَوْمِيَّة...

«العَدِيد من المَمَارَسَات اليَوْميَّة (التَّعْبير أو القِرَاءَة أو التَّجَوُّل أو التَّسَوُّق أو الطَّبْخ، إلخ) هيَ ذَات نَمَط تَكْتِيكي. عَلَى العُمُوم الكَثِير مِنْ "أَشْكَال الأَدَاء": نَجَاح الضَّعِيف ضدَّ الأَقْوَى (الجَبَابِرَة أو المَرَض أو عُنْف الأَشْيَاء أو النِّظَام، إلخ)، وخَدَائع، وفُنُون الانْقِلَابَات، ومَهَارَات "الصيَّادِين"، وتنقُّلَات مُنَاوَرَاتيَّة، وَتَصَنُّعَات مُتَعَدِّدة الأَشْكَال، ولقَاءَات مُبْهِجَة، وشَاعريَّة بقَدْر مَا هي حَرْبيَّة. تَنْتَمِي هَذِه الكَفَاءَات التَّنْفِيذيَّة إلى مَعَارِفَ عَرِيقَة. يَطْلقُ عَلَيْها الإغْرِيق اسْم الميتيس (mètis). لكن تَرْجع هَذِه المَعَارف إلى أَزْمِنَة أَكْثَر عَرَاقَةً، إلى العُقُول السَّحِيقَة مَعَ حِيَل أو تَصَنُّعَات النَّبَاتَات أو الأَسْمَاك. منْ أَعْمَق المحِيطَات إلى شَوَارِع المدُن الضَّخْمَة، تُشَكِّل التَّكْتِيكَات نَوْعًا من الاسْتِمْرَارِيَّة» (ابتكار الحياة اليومية، 1، صXLVII).

عِدَّةُ أعْمَالٍ...

«عدَّة أعْمَال، جديَّة ومَلْحُوظَة بلا شَك، تَهْتَمُّ بدِرَاسَة إمَّا التمثُّلات وإمَّا السُّلُوكيات في مُجْتَمَعٍ مُعَيَّنٍ. بفَضْل الوُقُوف عَلى هَذه الموضُوعَات الاجْتمَاعيَّة، من الممْكن والوَاجب أيْضًا اكْتشَاف الاسْتعْمَال الذي تُؤَدِّيه الجمَاعَات أو الأفْرَاد. مثلًا، تَحْليل الصُّوَر المنْشُورَة عبْرَ التَّلْفَزَة (التمثُّلات) والأوْقَات التي تُقْضَى أمَامَ الشَّاشَة (السُّلُوك)، ينْبَغي أن تُكَمَّل بدِرَاسَة عمَّا "يَصْنَعُهُ" المسْتَهلك الثَّقَافي خلَال هَذه السَّاعَات ومَا يَفْعَلُه بهَذه الصُّوَر، الأمْر نَفْسُه يَتَعَلَّق باسْتعْمَال المكَان الحَضَري أو المواد المشْتَرية منَ السُّوق المرْكَزي أو الحِكَايَات والقَصَص التي تُوَزِّعُهَا الجريدَة» (ابتكار الحياة اليومية، 1، صXXXVII).

القِرَاءَة

يصبغ دو سارتو على القراءة الخصائص التَّداولية نفسها التي أضفاها على الاستهلاك بوصفه إنتاجًا فرعيًّا أو ثانويًّا. فهي، أي القراءة، «إنتاج صامت»، لأنَّ ما تنتجه تستهلكه على التوِّ، ويظهر إنتاجها في إشارات أو حركات تبدو للوهلة الأولى وكأنها تافهة: انعطاف عبر الصفحات في شكل ذهاب وإياب، وسفر الرُّؤية عبر تضاريس النص لترى فيه ما لا يراه بنفسه، والتخلِّي عن دلالة بتجلِّي دلالة أخرى يتحلَّى الذهن بنقيضها، إلخ. القراءة هي تكتيكية تجوب الفضاء الإستراتيجي للكتابة. يكمن نشاطها في جملة الحركات التي تؤدِّيها تقوم القراءة بتخليد أسفارها عبر الذاكرة، لأنَّ الذاكرة ترتبط بالزمن، خلافًا للكتابة التي تتعلَّق بالمكان. بتعبير آخر، تحمل القراءة أحلامها معها في الديار الغريبة للكتابة.

المدِينَة

هذا شأن السَّائر في المدينة الذي يتجوَّل بحركة مرنة ومفتوحة على الإمكان والخيال وسط نظام صلب ومُقنَّن كما يُمثِّله التنظيم الحَضَري: شوارع مُعلَّمة بمنازل مُرقَّمة، وإشارات المرور المنسَّقة بالضوء الأخضر (الجواز بالمرور) والأحمر (الأمر بالتوقُّف)، والممشى الذي يَعبُره الرَّاجلون، وكل المعالم التي تُنظِّم الحركة. كذلك السَّائر في المدينة هو على غرار المتكلِّم باللغة في سياق معيَّن. إذا كانت اللغة تتحقَّق بفعل التَّعبير حسب المعطيات التَّداولية، فإنَّ المدينة تتحرَّك بفعل الأحداث التي تعجُّ أطرافها (مسيرات، وهتافات، ومحادثات). المدينة هي نسيج عُمراني على غرار اللغة التي هي نسيج من العلامات.

مخطط اليومي عند ميشال دو سارتو